ادب الحوار القرآني مع المخالفين في قصة موسى عليه السلام

د. فرزانه رحمانيان كوشككي Dr. Farzaneh Rahmanian
Department Of Arabic language and literature, Ramhormoz Branch
Islamic Azad University, Ramhormoz, Iran

الملخص

لقد اختار الله سبحانه وتعالى بمحض كرمه وفضله من يصطفيهم من خلقه رسلا في كل أمة، ليبينوا للناس من طرق الخير وسبل السعادة في الدارين، فيدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويحذروهم من عبادة غيره، ويأمروهم بمكارم الأخلاق ثم بيان طرق الخير والشر.وقد استخدم الرسل عليهم السلام اسلوب الحوار في دعوتهم أقوامهم لما لهذا الأسلوب من نتائج طيبة وآثار ايجابية في الدعوة إلى الله تعالى ولا يمكن للحوار أن يكون ناجحا مع وجود العصبية ولابد من الهدوء والصبر واستخدام الحكمة والعقل والمنطق.ولقد تأدب الأنبياء عليهم السلام بالأدب الرباني في حواراتهم مع أقوامهم، مثل قوم نوح وهود وصالح و لوط وشعيب و إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم.

ونحن في هذا المقال سنسلط الأضواء على حوار موسى مع قومه لنتبين منه مواطن الضوابط ونطبقه في المجالات المختلفة الحياتية بعد بيان معنى الحوار وأساليبه ومقوماته وقواعده كالإقناع والإحترام المتبادل والرفق واللين وما إلى ذلك، حيث يتبين لنا الهدف من تلك الحوارات في تعميق الإيمان في قلوب المخاطبين، وتقربهم من الحق، والحوار الذي دار بين موسى وفرعون يدل على انقياده عليه السلام لأوامر ربه في حواره من حيث الأخذ بجانب اللين والرأفة، والتدرج والإقناع والإتيان بالحجة ليهدي قومه عن طريق الحوار و لتحقيق الإنتصار، ولا ينبغي ان نقابل الشر بمثله، بل لابد من استعمال اللين في الكلام مع المدعوين، وهذا يدل على الحرية الدينية في الإسلام ولابد أن نتأدب بأدب الحوار من القرآن الكريم.

الكلمات الدليلة: الحوار – النبي موسي(ع)- قواعد الحواروضوابطه- القرآن الكريم

المقدمة

الإسلام نهضة عامة شاملة، وكانت الخطابة عماد هذه النهضة وأداة فعالة من أدواتها، وكانت هذه النهضة دينية في روحها وأساسها، والدين فيض من النور الإلهي يؤدي رسالته الأولى في إصلاح المجتمع البشري، وتحقيق أسباب السعادة له في حياته، وليس الإسلام دين جمود، فيقف عند المطالب الأخروية، بل جاوزها إلى تحقيق المصالح الدنيوية فكان لا بد له من أن يتعرض لكل ما به صلاح أمور البشرية، في العقيدة والتشريع والمعاملات والحكم والسياسة والاجتماع والأخلاق والفكر!

وحتى تظهر الخطابة بصورتها اللائقة بها، لابد ان تمر بمراحل منها إعداد الفكرة، ثم بعد ذلك يبدأ المتحدث فى تحليل الموضوع الذى وقع الاختيار عليه لعناصره الأساسية، واختيار أدلته، وتنسيق هذه الأدلة، ثم بعد ذلك تأتى صياغة المعانى والأدلة فى قالب بيانى فصيح، وأسلوب بليغ يتناسب مع المستمعين وهذه هي مرحلة التعبير البيانى والتي من خلالها يأخذ الخطيب أو المحاور الناجح بعرض أفكاره التي يؤمن بها ويعتمد إلى توضيح المعاني المتولدة من خلال عرض الفكرة وتأطيرها وتقديمها بأسلوب علمي مقنع للآخر، بحيث يظل العقل واعياً طوال فترة المحاورة ليستطيع إصدار الحكم عليها، سلباً أو إيجاباً. اذن الحوار ليس مطلوبا لذاته، كما هو الشأن في الخطاب المعاصر، وإنما المراد هو الوصول إلى نقاط ارتكاز مشتركة بين المتحاورين تؤسس لتفاهم أكبر على المستوى الحياتي والنشاط الإنساني، ولكن للأسف، فما يحصل اليوم هو أن الأقوى يفرض الحوار على الأضعف ويقرر النتائج كما يريدها وكما يتصورها وما على الآخر إلا أن يصغي ويبارك وإلا فإنه سيوصم بالتخلف أو الإرهاب أو رفض الآخر!

إن كثيرا من المشاكل والصدامات الدامية التي تدفع البشرية ثمنها كان ممكنا أن تتجنب أصلاً أو يخفف أثرها أو لو لجئ إلى الحوار. إن الحوار هو لغة الإسلام وقد قضى الله سبحانه أن تكون

علاقته جل شأنه بمخلوقاته قائمة على أساس الحوار الإقناعي وليس على أساس القهر والإكراه، وأن القرآن الكريم وهو دستور المسلمين قد وجهنا إلى أن الحوار هو الأسلوب الذي يجب على المسلمين إتباعه عند بحث القضايا والمشكلات.

والحوار يمكن أن يقع بين مختلف مكوّنات المجتمع المدني وتوجهاته الاجتماعية والسياسية، ومنها تنزل إلى مستوى الأسرة، فيُرى أثرها فيما بين الزوج والزوجة وما بين الزوجين والأولاد. فالحوار ممر استراتيجي لحل الأزمات الكبيرة والصغيرة.

وترجع أهمية البحث إلى معرفة أن للحوار وأصوله وضوابطه أهمية كبيرة وأن هذه الأصول هي التي تضبط مسار الحوار، وتوجهه نحو الوصول إلى الهدف المنشود ولذلك كان الواجب على كل محاور مسلم أن يكون على معرفة بها ويجعلها نصب عينيه حينما يدخل في الحوار مع الآخر.

ولقد استعمل القرآن الكريم منهج الحوار ليعلمنا استعماله في جميع مجالات حياتنا لكي يعيش المجتمع الإنساني في إخاء وتواصل، وحب وسلام. فهناك محاورات بين الباري عز وجل وبين مخلوقاته من الرسل الكرام ومن الملائكة المقربين، بل ومن الشيطان الرجيم. وهناك حوار بين الرسل وأقوامهم، أو بين المؤمن والكافر، أو الحوار بين الأخيار فيما بينهم، أو بين الأشرار فيما بينهم. وهناك حوار مع أهل الكتاب، أو مع المنافقين، أو مع المقلدين لسابقيهم في الباطل والضلال، أو مع السائلين للرسول عليه الصلاة والسلام.

فالقارئ الذى ينتهى من قراءة القرآن كاملاً.. لابد أن يستوقفه مدى الكثافة اللغوية والحضور الطاغى لسيدنا موسى فى القرآن الكريم.. والملفت للتفكير هو أنه من خلال القراءة نكتشف أن قصة موسى على طولها وأحداثها الكثيرة والمتشابكة وتكرار أجزاء منها فى معظم السور إلا أنها فى كل مرة تأتى بجديد يثير خيال القارئ ويشركه فى الوقائع الحقيقية بسحر اللغة والبيان والصور الحية وجميع عناصر القصة من أشخاص وأزمنة وأماكن وسياق زمنى وتجسيم أدبى يشعر معه القارئ أنه يرى صوراً حية لا تزال نابضة.. قمة فى الإيجاز والإعجاز اللغوى.. لذلك لا يمل أبداً قارئ القرآن من قراءة الذكر الحكيم.. إضافة إلى أن الموعظة القصصية أقوى تأثيراً فى نفس المتلقى.. وقصة سيدنا موسى ممتلئة بالحوارات.. والتي نحن بصدد دراستها في هذا المقال.

الحوار في اللغة والاصطلاح

الحوار مأخوذ من الحور وهو الرجوع عن الشئ والى الشئ والحور النقصان بعد الزيادة لأنه رجوع من حال الى حال والحوْر ما تحت الكور من العمامة لأنه رجوع عن تكويرها والمحاورة المجاوبة والتحاور التجاوب والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة والحَوَر ان يشتد بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها (لسان العرب ذيل مادة حور) وحاور محاورة وحواراً جاوبه وجادله(المعجم الوسيط)

اما الحوار في الاصطلاح

نوع من الحديث بين شخصين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب(ديماس، ١٩٩٩: ١٠) وقد ورد الحوار في القرآن الكريم بالمعنى المشار إليه في الآية(فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً)(الكهف/ ٤٣). وقيل هو مناقشة بين طرفين أو أطراف بقصد تصحيح الكلام أو إظهار حجة وإثبات حق ودفع شبهة وردّ الفاسد من القول والرأي(ابن حميد، ١٩٩٩م: ٢١٢). ولا بد أن نشير إلى أن الحوار هو نقاش هادئ بين طرفين يتداولان الكلام بينهما في أجواء بعيدة عن الخصومة و التعصب ويختلف عن الجدل، فالحوار والجدل يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين لكنهما يفترقان بعد ذلك.

مفهوم الجدال: هو الكلام بين طرفين يغلب عليه أسلوب المنازعة و المعارضة و التعصب للرأي.

الجدال هو المفاوضة علي سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الارض الصلبة(الاصفهاني، ١٩٩٧: ١/ ١١٧).

إن الحوار يتحول إلى جدل مذموم إذا تخلله التمسك بالرأي والتعصب والمنازعة.

فالجدل إذا كان هادئا فهو محمود وإلا فهو مذموم، وجاء الجدل مقيدا بالحسنى حيث قال تعالى:«وجادلهم بالتي هي أحسن»(النحل/١٢٥).

الحوار وضوابطه في القرآن الكريم

إن الغرض من الحوار هو البحث عن الحق ليتضح، وحتي لا يتحول الحوار

إلى مشاحنات أنانية فلابد من الإلتزام بقواعد.

لقد شرع القرآن الكريم جملة من الضوابط توصل المتحاورين إلى الحق و منها:

أ- تقبل الآخر: (المخالف) و ذلك بقبول الاختلاف والاعتراف بالآخر واحترام حقه في التعبير عن قناعاته، لقوله تعالى:"و إن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون". (التوبة / ٦)

ب- حسن القول: أي تجنب الألفاظ المؤذية و الجارحة التي تفضي إلى عوائق التواصل النفسية والسلوكية مثل السخرية والاستهزاء واللامبالاة لقوله تعالى:"وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا". (الإسراء/ ٥٣)

ج- العلم و صحة الأدلة: أي وجوب اعتماد الحجة و الأدلة الواضحة للدفاع عن الرأي لقوله تعالى:"قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون".(الأنعام/ ١٤٨) ومن يتصدى للحوار مع الآخر لابد له من التسلح بالعلم، خاصة العلم بموضوع الحوار وتشعباته لأن الجهل بموضوع الحوار وأساسياته يؤدي بالمحاور إلى الجدال في شيء لا يدرك جذوره وخلفياته وأبعاده،كما أن على المحاور أن يكون مدركا لوجهة نظر الطرف الآخر حتى لا يتكلم في أمور خارجة عن دائرة موضوع الحوار.

د- الإحترام المتبادل: يبين القرآن الكريم أن هناك طريقتين للحوار طريقة العنف والتي تعتمد مواجهة الخصم بأشد الكلمات واللا عنف وتعتمد اللين والمحبة.

ومن المظاهر التي ينبغي مراعاتها في الاحترام المتبادل

١- الهدوء في أثناء الحوار: لا شك أن الهدوء والغضّ من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس، قال تعالى:« واغضض من صوتك»(لقمان/١٩)، وليس معنى الهدوء أن يخفض صوته لدرجة أن يعجز معها المستمع عن متابعة الحديث وإنما التوسط. كما أنه لا يمكن إغفال التأثير الإيجابي للانطلاق من النقاط المشتركة على نفسيات المتحاورين والهدوء الذهني والفكري الذي يتمتعون به إذا ما بدأوا حوارهم في جو من الهدوء بدلاً من أجواء يسودها التوتر النفسي والذهني منذ البداية. وعلى السامع أن يقبل بوجهه لمحاوره وأن يوليه انتباهه وألا يقاطعه.

٢- بسط الوجه: إن من أخلاق المحاور النبيل ذي الأدب التلطف وبسط الوجه لمن يحاوره، قال تعالى: ولا تصعر خدك للناس(لقمان/ ١٨). والمحاور الناجح هو الذي يقبل على محاوره بوجه باش، ومن كانت هذه صفته كان على التفكير واختيار الكلمة المناسبة لمقتضى الحال أكثر قدرة وينظر له محاوره بشئ من الثقة والإطمئنان(الحاشدي، لا تا: ١٨٧)

٣- المحاورة بأفضل الأسماء وأجمل ألوان الخطاب: ليس ثمة شئ أجمل وأحب للطرف الأخر من مناداته باسمه وهذا إن دل فهو يدل على الإحترام، ونرى إبراهيم عليه السلام يتذلل لأبيه ويقول: يا أبت)-

- الإنصاف: و هو الإقرار بصحة رأي المحاور والإذعان للحق والالتزام به إن تبين صدق الحجج. وهي أن يذكر كل من المتحاورين حسنات الآخر.لأن الإسلام دين العدل وأكد على الالتزام بالعدل والإنصاف في المواقف كلها.

٥- عدم الإستعجال بالرد على الخصم: ينبغي على المحاور أن ينتظر خصمه حتى يفرغ من حجته فيجيبه بما قلّ ودل، فيصمت بحلم مهما أغضبه خصمه وينبغي أن يتكلم بعلم، قال تعالى:« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير»(الحج/٨).

هـ- استخدام لغة أعضاء الجسم: أثبتت بعض الدراسات أن أكثر من نصف عاداتنا في المواجهات الحوارية هي غير كلامية، أي أنها عبارة عن تعابير أعضاء الجسم، فنلاحظ أن (لغة الجسم) أعضاءنا وجوارحنا تعبر عن أحاسيسنا وتطلعاتنا وتخبر عن المكامن النفسية قبل أن نشرع في الكلام (انظركابور، ١٣٨١: ١٣).

ومن هنا يتضح أن تقاسيم الوجه واشارات ونظرات العين وكيفية لحن الصوت في الإلقاء وهيئة الجسم كل منها تعطي مفهوماً ورسالة خاصة للمخاطب، وتجدر الإشارة إلى أن سيماء الوجه أكثر تأثيرا من الجوارح الأخرى(انظر ريچاردسون، ١٣٨١: ٣٢)، وكما نعلم أن العيون بنظراتها المباشرة هي مرآة

الروح فمن خلالها تنعكس المحبة أو الكراهية والبغض وغيره، وجاء في القرآن الكريم:«...فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حدادٍ أشحة على الخير» (الأحزاب/ ١٩)

وترجع أهمية لغة أعضاء الجسم إلى الحد الذي إذا شاهدنا تعارضاً بين انفعالات الوجه وكلام المحاور فإن كفة تعابير الوجه هي الأرجح والأهم لأنها العبرة ولأن الأخذ بعنان الحديث أسهل من الحد من انفعالات الوجه(ريچاردسون،١٣٨١: ٣٢).

وجاء في القرآن الكريم ما يشير إلى السيماء، قال تعالى: «:تعرفهم بسيماهم»(بقرة/٢٧٣)، كما جاء عن الصوت: «ولتعرفنّهم في لحن القول»(محمد/٣٠)

من أساليب الحوار في القرآن:

ومن ثم وضع القرآن الكريم نماذج و أساليب راقية للحوار والتواصل نذكر منها:

١-الأسلوب الوصفي التصويري: وهو أسلوب يعرض به القرآن مشاهد حوارية واقعية بشكل حي يأخذ بلب المستمع مثل حوار الله تعالى للملائكة وحوار الأنبياء لأقوامهم، ومن خصائصه:

- شد القارئ للنص القرآني.
- عرض الموقف بشكل حي يتجسد فيه الحوار ويؤثر في القارئ
- إدماج القارئ أو المستمع في الجو العام للمشهد الحواري.
- تقريب القارئ أو المستمع من الحوار الجاري في أحداث القصة.

و من أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء:«قال فرعون و ما رب العالمين، قال رب السموات و الأرض و ما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تستمعون، قال ربكم و رب آبائكم الأولين، قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، قال رب المشرق والمغرب و ما بينهما إن كنتم تعقلون» (الشعراء / ٢٣-٢٨).

٢- الأسلوب الحجاجي البرهاني: و هو أسلوب يعتمد العقل لإظهار الحجة للمنكرين لوحدانية الله تعالى أو البعث و دحض ادعاءاتهم الباطلة و إظهار مكامن فساد معتقداتهم و انحراف أفكارهم مثل قوله تعالى في البرهنة على وحدانيته:«قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا و لا يضركم، أف لكم و لما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون» (الأنبياء / ٦٦-٦٧).

ومن البرهنة على البعث قوله تعالى:«أمن يهديكم في ظلمات البر و البحر و من يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته، أ إله مع الله، تعالى الله عما يصفون يشركون، أمي يبدئ الخلق ثم يعيده و من يرزقكم من السماء و الأرض، أ إله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صداقين»(النمل /٦٣-٦٤).

وتكمن قيمة هذا الأسلوب في تحرير العقول من قيد الهوى و التقليد و توجيهها إلى التفكر و التدبر في الآيات الكونية.

من مقومات الحوار

البنية الشخصية ونموها: إن الأوصاف الذاتية لها تأثير مباشر علي الأقوال والأفعال، قال تعالى:« قل كل يعمل على شاكلته» (الإسراء/٨٤)، فالمحاور الناجح قبل أن يبدأ الخطاب يتنبأ بآثاره المحتملة.

التكرار والتمرس: إن تصرفات وأفعال الإنسان في حالة تكرارها تكون في البداية بصورة حالة ثم تصبح عادة وبعدها تتبدل إلى ملكة وصفة ثابتة (نراقي، لا تا: ١/٥٥).

ولهذا يمكننا أن نسلم بأن آداب الحوار كسائر الآداب وبصورة عامة صفة مكتسبة وليست من المهارات الذاتية(وود، ١٣٧٩: ٨٢).

العقائد الدينية: لا بد و أن نعرف أولاً بأن وجود الله عَزَّ و جَلَّ وجود غير محدود بحدود المكان و الزمان، إذ أن وجوده غير متناهٍ و غير محدود، و هو الغني بالذات عن كل شيء وهو محيط بكل شئ، ورقيب على أعمالنا وأقوالنا، وهذا يدفع بالمسلم أن يضبط أعماله وأقواله وأن ينطلق لسانه بالكلام المتقن، جاء في القرآن الكريم: أولا لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون(البقرة/٧٧) أيضاجاء:...وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضي من القول وكان الله بما يعملون محيطا(النساء/١٠٨)، وقد كلف الله الملائكة بهذه الرقابة: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(ق / ١٨)، فالله يحاسب الإنسان على فعله وقوله عندما ينطق سواء كان في سبيل رضا الله أو سخطه(الحر العاملي، ١٤٠٩ هـ: ١٢/٢٥١).

من آفات الحوار

فالكلام من حيث الكم والكيف معرض لبعض السلبيات التي تؤثر على

نفسية المتحاورين وتسبب ضعف التواصل واانعدام وسيلة الاتصال في الحوار ونستطيع أن نستخلص بعضاً منها من تعاليمنا الإسلامية:

الإطالة في الكلام: إن الإطالة في الكلام لها آثار سلبية على المحاور ثم المخاطب حيث تسبب الملل أو الخطأ، فجاء عن الإمام علي(ع): الكلام بين خلتي سوء هما الإكثار والإقلال فالإكثار هذر والإقلال عيّ و حصر (الأمدي، لا تا: ٢١٢).

النجوى: النجوى أو الهمس على ملأ من الآخرين يسبب سوء الظن وعدم الثقة وهو تصرف لا يتماشي والأدب، وقد ينتج عنه التألم وإيذاء الآخرين، قال تعالى:« إنما النجوى من الشيطان»(المجادلة/ ١٠). ولاخير في النجوى إلا إذا كان في التقوى والخير، قال تعالى: لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس (النساء/ ١١٤).

عدم التوافق بين الفعل والقول: يعتبر هذا العامل من العوامل المهمة في تقليل تأثير الخطاب والحوار وتزلزل التواصل والتفاهم، جاء في القرآن الكريم:« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »(الشعراء/ ٢٢٦).

قصة النبي موسي في القرأن الكريم

ذكرت قصة موسى عليه السلام عشر مرات، وذكر اسم موسى عليه السلام فى القرآن ١٣٦ مرة.

فالقارئ الذى ينتهى من قراءة القرآن كاملاً.. لابد أن يستثير انتباهه هذا التكرار لقصة النبي موسى فى القرآن الكريم..

ولادة موسى وارضاعه:

وحين ولد موسى (ع) اوحى الله سبحانه الى امه ان ترضعه وحين تخاف عليه من الذبح العام فعليها ان تضعه في ما يشبه الصندوق وتلقيه في اليمّ وهكذا شاءت ارادة اللّه ان يلقيه اليم الى الساحل واذا بآل فرعون يلتقطونه فيعرفون انه من اولاد بني اسرائيل فتتدخل امرأة فرعون في شأنه وتطلب ان يتركوه على ان تتخذه خادماً او ولداً تأنس به مع فرعون. وقد عاشت والدة موسى لحظات حرجة من حين القائه في اليم فأمرت أخته ان تتبع اثره وتتبع سير الصندوق فتتعرف على مصيره. وحين عرض الطفل على المرضعات ابى ان يقبل واحدة منها فعرضت على آل فرعون ان تدلهم على امرأة مرضعة تتكفل رعايته وحضانته وارضاعه وكانت هذه المرأة بطبيعة الحال هي أم موسى وهكذا رجع الطفل الى امه ليطمئن قلبها وتعلم ان ما وعدها الله سبحانه من حفظه وارجاعه اليها حق لا شك فيه. ولقد شب موسى في البلاط الفرعوني حتى اذا بلغ اشده وهبه اللّه سبحانه العلم والحكمة (القصص / ٧ – ١٣. طه / ٣٧ – ٤٠. القصص / ١٤).

خروج موسى من مصر:

ودخل موسى المدينة في يوم ما على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلاً من شيعته يقاتل رجلاً آخر من اعدائه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ولم يكن ينتظر موسى ان تؤدي هذه الضربة الى الموت ولذلك ندم على هذا العمل المتسرع الذي انساق اليه فاستغفر ربه عليه. واصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب ان ينكشف امره فيؤخذ بدم الفرعوني فاذا به يواجه قضية اخرى مشابهة واذا بالذي استنصره بالامس فنصره يستصرخه اليوم ايضاً. فعاتبه موسى على عمله ووصفه بانه غوي مبين يريد توريطه واحراجه. ثم لما اراد ان يبطش بالذي هو عدو لهما (موسى والاسرائيلي) ظن الاسرائيلي ان موسى يقصد البطش به لا بالفرعوني. فقال لموسى: اتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالامس ؟ ان تريد الا ان تكون جباراً في الارض. وبذلك كشف الاسرائيلي عن هوية قاتل الفرعوني الاول وفضح قتل موسى له فعمل الملأ على قتله بدم الفرعوني.

وجاء رجل من اقصى المدينة يخبر موسى بالامر ويقول له ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وطلب منه المبادرة الى الخروج والهروب من الفرعونيين(القصص / ٧ – ١٣. طه / ٣٧ – ٤٠. القصص / ١٤).

فخرج موسى من المدينة خائفاً يترقب ان يوافيه الطلب او تصل اليه ايدي الفرعونيين فدعا ربه ان ينجيه من القوم الظالمين.

موسى في ارض مدين:

وانتهى السير بموسى الى ارض مدين فلما وصلها انتعش الامل في نفسه فقال: عسى ربي ان يهديني سواء السبيل. ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس الرعاة يسقون ووجد دونهم امرأتين في حيرة من امرهما تذودان الاغنام وتجمعانها ولا تسقيان. فأخذه العطف عليهما فقال لهما: ما خطبكما ولماذا لا تسقيان ؟ قالتا له: لا نسقى حتى يصدر الرعاء وينتهوا من السقي لاننا امرأتان وأبونا شيخ كبير

لا يتمكن من القيام بهذه المهمة الشاقة. فتولى موسى عنهما هذه المهمة فسقى لهما ثم انصرف الى ناحية الظل وهو يشكو ألم الجوع والغربة والوحدة فقال: رب اني لما انزلت الي من خير فقير. ولما رجعت الامرأتان الى ابيهما الشيخ وعرف منهما قصة هذا الانسان الغريب الذي سقى لهما بعث الى موسى احداهما لتدعوه اليه فجاءته تمشي على استحياء فقالت له ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا. فأجاب موسى الدعوة وحين انتهى الى الشيخ طلب منه ان يخبره عن حاله فقص موسى عليه قصة هربه وسببها وحينئذ آمنه الشيخ وقال له لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

وقد طلبت احدى ابنتي الشيخ من ابيها ان يستأجر موسى للعمل عنده وليقوم عنهما ببعض المهام الملقاة على عاتقهما نتيجة عجز الشيخ وضعفه وذلك نظراً لقوة موسى وقدرته على القيام بالعمل مع أمانته وشرف نفسه. فقال له الشيخ: اني اريد ان ازوجك احدى ابنتي هاتين شريطة ان تأجرني نفسك ثماني حجج (سنين) فاذا اتممتها عشراً فذلك من عندك. فوافق موسى على هذا الزواج وتم العقد بينهما.(القصص / ٢٢ – ٢٨ وطه / ٤٠

بعثة موسى عليه السلام ورجوعه الى مصر:

وبعد أن قضى موسى الاجل بينه وبين صهره وقد سار بأهله اذا به يشاهد ناراً من جانب الطور. وقد كان بحاجة اليها فقال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى. فلما اتاها وجد شجرة وجاء نداء الله سبحانه من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة: اني انا الله رب العالمين فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وانا اخترتك لوحيي ورسالتي فاستمع لما يوحى اليك. ثم قال الله له (ما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال هي عصاي اتوكأ عليها واهش بها على غنمي ولي فيها مآرب اخرى قال الله له ألقها يا موسى فاذا هي حية تسعى فلما رآها تهتز كأنها جان هرب ولم يعقب فناداه الله يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين، اني لا يخاف لدى المرسلون سنعيدها سيرتها الاولى. ثم قال له أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ومرض فأدخل يده واذا بها تخرج بيضاء ثم ردها فعادت كما كانت. وبعد ذلك أمره الله سبحانه أن يذهب بهاتين الآيتين المعجزتين الى فرعون وقومه ليدعوهم الى الله سبحانه. فخاف موسى من تحمل هذه المهمة فقال ربي اني قتلت منهم نفساً فأخاف ان يقتلون وأخي هارون هو افصح مني لساناً فأرسله معي وذلك يصدقني اني اخاف إن يكذبوني. قال الله له سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما فأتياه فقولا انا رسول ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك.(الاسراء: ٢ – ٣. طه ٩ – ٤٧. الفرقان: ٣٥ – ٣٦. القصص: ٢٩ – ٣٥. الشعراء: ١٠ – ١٦. النازعات: ١٥ – ١٩.

وحينما عاد موسى الى مصر توجه مع اخيه هارون الى فرعون فقالا له: انا رسولا ربك رب العالمين ولا يمكن ان نقول على الله غير الحق الذي ارسلنا به وقد جئناك ببينة من ربك فارسل معنا بني اسرائيل وارفع عنهم العذاب الذي تنزله فيهم وقد قالا له ذلك بشكل لين وبأسلوب استعطافي هادئ (الاعراف: ١٠٤ – ١٠٥. الشعراء: ١٧ و٢٢) فرعون استغرب هذه الرسالة من موسى واخيه فقال لموسى: ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ثم بعد ذلك فعلت فعلتك التي فعلت بأن قتلت رجلاً من الفرعونيين ؟ فأجابه موسى: نعم لقد فعلت ذلك ولكني لما خفتكم على نفسي ففررت منكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين. الشعراء: ١٨ – ٢١.

فرعون يجادل موسى في ربوبية الله:

وبعد ان رأى فرعون اصرار موسى وهارون على الرسالة قال فمن ربكما ؟ قال له موسى ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهو رب السموات والارضين وما بينهما وما تحت الثرى قال فرعون فما بال القرون وما هو مصيرها. فأجابه موسى علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى وهو الذي يجعل لكم الارض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وانزل من السماء ماء فأخرج به ازواجاً من نبات شتى مختلف ألوانه واشكاله. وقد استنكر فرعون هذه الدعوة الجديدة وهو يعتقد بنفسه الالوهية فتوجه لمن حوله مستنكراً وقال: الا تسمعون ؟ ولما رأى الاصرار من موسى واخيه اتهم موسى بالجنون وهدده بالسجن اذا اتخذ إلهاً غيره. (الشعراء: ٢٤ – ٢٩. طه: ٤٩ – ٥٥).ولم يستسلم موسى واخوه امام هذه التهمة والتهديد وانما حاولا ان يسلكا الى فرعون طريقاً آخر لاقناعه او احراجه وهذا الطريق هو استثمار السلاح الذي وضعه الله بيد موسى (معجزة العصا واليد) فقال موسى

لفرعون اني قد جئتك من ربي بآية تبين لك الحق الذي انا عليه. قال فرعون: اذا كنت صادقاً فائت بهذه الآية والحجة فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين. ولم يتمالك فرعون وملأه انفسهم امام هذا الموقف الا ان اتهموا موسى بالسحر والشعوذة وانه أنما جاء بهذا السحر من أجل ان يخرجهم من ارضهم ويجلوهم عنها. (الاعراف: ١٠٦ -. ١٠٩. الشعراء: ٣٠ - ٣٥. يونس: ٧٥ – ٧٨)

مباراة موسى مع السحرة:

وقد اشار قوم فرعون وخاصته عليه بأن يواجه موسى بالسحرة من بلاده فيجمعهم في يوم يشهده الناس جميعاً ليتباروا وسوف يغلبونه وهم كثيرون فيفتضح امره ويترك دعوته وعمل فرعون بهذه النصيحة فطلب من موسى واخيه ان يعطياه مهلة الى وقت معين ليواجهه بالسحرة. وجمع فرعون كيده وحشد جميع السحرة من بلادهم وعرض عليهم الموقف وطلب منهم ان يحرجوا موسى ويغلبوه وجمع الناس لهذه المباراة ظناً منه انه سوف ينتصر وقد شجعه على ذلك ما طلبه منه السحرة من اجر واعطيات اذا كانوا هم الغالبين.

وحين اجتمع موسى بالسحرة خيروه بين ان يلقي قبلهم او يكونوا هم الملقين قبله. فاختار ان يكونوا هم الملقين. فالقى السحرة حبالهم وعصيهم واذا بها تبدو لاعين الناس - من سحرهم - كأنها تسعى كالحيات. وعندئذ اوجس موسى في نفسه خيفة اذ لم يكن ينتظر ان يواجه بالاسلوب الذي اتبعه في معجزته مع فرعون. فأوحى الله سبحانه له ان لا تخف فانك انت الذي سوف تنتصر عليهم وانما عليك ان تلقي عصاك وحينئذ تتحول الى حية تلقف جميع ما صنعوا لان ما صنعوه ليس إلا كيد ساحر ولا يفلح الساحر. وعندما رأى السحرة هذا الصنع من موسى انكشفت لهم الحقيقة التي ارسل بها وان هذا العمل ليس عمل ساحر وانما هو معجزة إلهية. فآمنوا وقالوا آمنا برب هارون وموسى.

وامام هذا الموقف الرائع من السحرة في هذا المشهد العظيم من الناس وجد فرعون نفسه في وضع محرج الامر الذي اضطره لان يلجأ الى الانذار والوعيد فقال للسحرة: آمنتم له قبل ان اذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن اينا اشد عذاباً وأبقى ولم يكن موقف السحرة الا ليزداد صلابة وثباتاً واستسلاماً لله رجاء مغفرته ورحمته. الاعراف: ١١٠(- ١٢٦. يونس: ٨٠ - ٨٩. طه: ٥٧ - ٧٦. الشعراء: ٣٤ – ٥٢).

إصرار فرعون وقومه على الكفر ومجيء موسى بالآيات:

وقد اصر فرعون وقومه على الكفر وصمموا على مواصلة خط اضطهاد بني اسرائيل وتعذيبهم وواجه موسى وبنو اسرائيل ذلك بالصبر والثبات انتظاراً للوقت الذي يحقق الله سبحانه فيه وعده لهم بوراثة الارض. ولكن الله سبحانه أمر موسى ان يعلن لفرعون وقومه بان العذاب سوف ينزل بهم عقاباً على تكذيبهم له وتعذيبهم لبني اسرائيل وامتناعهم عن اطلاقهم وارسالهم فجاءت الآيات يتلو بعضها بعضاً فأصابهم الله بالجدب ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. وكانوا كلما وقع عليهم العذاب والرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون)(الاعراف: ١٢٧ - ١٣٥. غافر ٢٣ - ٢٧. الاسراء: ١٠١ - ١٠٢. طه: ٥٩. النمل: ١٣ - ١٤. القصص: ٣٦ - ٣٧. الزخرف: ٤٦ - ٥٠. القمر ٤١ - ٤٢. النازعات: ٢٠ – ٢١).

المؤامرة لقتل موسى وطغيان فرعون:

وامام هذه الآيات المتتاليات التي جاء بها موسى لم يجد فرعون اسلوباً يعالج به الموقف غير الائتمار بقتل موسى وادعاء القدرة على مواجهة آلهته فنجد فرعون يأمر هامان بان يتخذ له صرحاً ليطلع منه على اسباب السموات ويتعرف على حقيقة اله موسى. ولكن فرعون يفشل في كلا الجانبين فلم يتمكن من ان يحقق غايته من وراء بناء الصرح كما لم تصل يده الى موسى لان احد المؤمنين من آله يقف فيعظهم ويؤنبهم على موقفهم من موسى ويبادر الى اخباره بنبأ المؤامرة فينجو موسى (القصص: ٣٨. غافر: ٢٨ – ٤٦).

خروج موسى ببني اسرائيل من مصر:

وحين واجه موسى محاولة اغتياله ورأى اصرار فرعون وقومه على اضطهاد بني اسرائيل وتعذيبهم ووجد انه لم تنفع بهم الآيات والمواعظ صمم على الخروج

ببني اسرائيل من مصر والعبور بهم الى جهة فلسطين وقد نفذ موسى هذه العملية وسار ببني اسرائيل متجهاً الى سيناء. ولم يقف فرعون وقومه معه امام هذه الهجرة مكتوف اليدين بل جمع جنده من جميع المدائن وقرر ملاحقة موسى وبني اسرائيل وارجاعهم الى عبوديته بالقوة. ووجد موسى وبنو اسرائيل انفسهم نتيجة هذه المطاردة والبحر من امامهم وفرعون وجنوده من خلفهم وارتاع بنو اسرائيل من هذا الموقف وكادوا ان يكذبوا ما وعدهم به موسى من الخلاص. ولكن موسى وبايمانه الوطيد اخبرهم ان الله سبحانه سوف يهديه طريق النجاة. وتحقق ذلك – فعلاً – اذ اوحى الله الى موسى ان اضرب بعصاك البحر واذا به ينفلق كل فرق كالطود العظيم ويظهر بينهما طريق يبس يبساً يعبر من خلاله بنو اسرائيل ويحاول فرعون وجنوده ان يتبعوهم من هذا الطريق أيضاً واذا بجانبي البحر يلتقيان فيغرق مع جنده(الاعراف: ١٣٦ – ١٣٧. يونس: ٩٠ – ٩٢. الاسراء: ١٠٣ – ١٠٤. طه: ٧٧)

دراسة حوار موسى مع قومه

وسنعطي الآن توضيحاً عن أدب الحوار القرآني وأصوله في حوار النبي موسى عندما كلفه بمحاوة فرعون ودعوته للإيمان. فالله سبحانه وتعالى عندما أمر موسى بالذهاب إلى فرعون قائلاً له: « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » (طه/٢٤) لم يرسله إلا بعد أن توفرت فيه الشروط المثالية للحوار. ولكن موسى رأى في هذا التكليف ما يزعجه ويقلقه، خاصة الحوار مع فرعون المتكبر المتجبر، والمعروف بالبطش، والحوار في هذه الحالة، مع فرعون، سيسبب للنبي القلق والاضطراب والتوتر، ولن يكون ناجحاً، فها هو موسى يطلب من ربه أن يحقق له أشياء تعينه علي المحاورة فقال: « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي» (طه /٢٥) وذلك حتى يستطيع أن يؤدي الرسالة باطمئنان وعلى خير وجه، وطبعاً، ثم يتابع موسى فيقول: « وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي » (طه/٢٦) أي أعنّي يارب على تبليغ الرسالة وتجاوز الصعاب والعراقيل. وهنا ندرك أنه لا يمكن تأدية الرساله ومحاورة المخالفين بوجود المصاعب والمشاكل والعراقيل. ويضيف موسى قائلاً: « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي»(طه/ ٢٧-٢٨)، ولأن موسى (ع) لم يكن لسانه كامل البيان والطلاقة طلب الإستعانة بأخيه الفصيح الطلق اللسان. وكان في كلام موسى حبْسة تمنعه من إعطاء بعض الحروف حقها في النطق. وهذا يدل تماماً على أن الحوار يحتاج إلى طلاقة في اللسان وسلامة في النطق وتوضيح للكلمات والجمل، حتى لا يكون فيها غموض أو سوء فهم، وللتغلب على هذه المشكلة يقول موسى: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي» (طه /٢٩ -٣٠)، أي اجعل أخي هارون معيناً ومساعداً لي في رسالتي، ويضيف أيضاً قائلاً:«اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي »(طه/٣١-٣٢). كما جاء في سورة الشعراء بهذا المفهوم: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤).

فموسى هنا يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجعل أخاه خير معين وسند له في مهمته ويطلب منه كذلك أن يشركه في تبليغ الرسالة وفي النبوة أيضاً، ومعنى ذلك أنه يصر على أن يكتمل لديه سلاح البيان ممثلا في اللسان حيث لم يكن لسانه كامل البيان والطلاقة، فطلب الاستعانة بأخيه الفصيح الطلق اللسان فقال: «وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي»(القصص/ ٣٤). وهنا نعرف أن المحاور ربما يحتاج إلى من يساعده ويقدم له يد العون في حواره، إذا نسي شيئاً ما، أو أخطأ في التعبير أو التوضيح أو في طرح الفكرة، أو ابتعد عن هدف الحوار، وربما يشاركه في الحوار أيضاً. ويجيبه رب العالمين إلى طلبه قائلاً: «قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ»(القصص/ ٣٥).

ولكن الذهاب إلى فرعون فيه من المخاطر ما فيه، وربما يأمر بقتلهما، لذلك يتوجهان إلى الله سبحانه وتعالى مستنجدين طالبين العون منه «قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى»(طه/ ٤٥). وهنا نعرف أيضاً أن الحوار لا يمكن أن ينجح مع الخوف والخطر، أو الترهيب والإكراه، وإنما ينجح بوجود الأمن والسلام والاطمئنان.

ويذكّرهما الله سبحانه وتعالى، بعد ذلك، بأن يكونا مؤدبين ولطيفين في حوارهما مع فرعون:«فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»(طه/ ٤٤) لأنه بإظهار الأدب والاحترام مع الطرف الآخر، ربما يؤثران فيه، ويجعلانه يميل إليهما ويستمع لما يقولانه، وربما يقنعانه بما يريدان.

فإذا كان موسى وهارون أُمرا بأن يقولا لفرعون قولاً ليناً فمن دونه أحرى بأن

يقتدي بذلك في خطابه وأمره بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن في ذلك ما يكسر عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة (القرطبي، لا تا: ١١/٢٠٠). فهذا محمد أمره ربه أن يجادل المعاندين بالحسنى مع أنهم أساءوا إليه، وكذبوه وآذوه، قال تعالى:« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم»(الأنعام/١٠٨)

وهذه كانت حال كل الأنبياء والرسل في كل حواراتهم مع الآخرين، وكان كل نبي يقول دائماً: « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ..»(يونس/ ٧٢) وهذا يذكرنا أيضاً بأدب وأخلاق النبي محمد صلى الله عليه وسلم الرفيعة مع الآخرين «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ»(آل عمران/ ١٥٩) مما يدلنا على وجوب احترام الطرف الذي نتحاور معه حتى ولو كنا على اختلاف معه في أفكاره وآرائه ومواقفه، فالحوار هو الاعتراف بالآخر كحقيقة مستقلة، وأن يمتلك كل طرف حرية فكرية كاملة، لأنه في الحوار يجب أن يفهم المتحاوران أحدهما الآخر فهماً جيداً وإلا انقلب الحوار إلى مجرد نقاش عقيم. كما أن النفوس تميل إلى اللين والملاطفة والتعامل بالحسنى وتنفر من الشدة والمحاور الناجح في أمس الحاجة إالى إلتفات الناس حوله وتحلّيه بالرفق واللين يساعد في تحقيق ذلك لأن الطبائع البشرية تنفر من الفظ الغليظ حتي لو كان خير الناس.

ويقف موسى وهارون أمام فرعون أخيراً، بكل شجاعة وثقة بالنفس، من أجل محاورته. وقد تم هذا بتأييد وتسيير من الله سبحانه وتعالى. فالوصول إلى فرعون والمثول أمامه، في بلاطه الواسع، بعد تجاوز كل الحرس المدججين بالأسلحة، ليس بالأمر السهل أبداً.و كان معجباً بنفسه وبغناه وقوته، وأنه فوق كل البشر إلى حد أنه ادّعى الألوهية.

ويسأل فرعون موسى باستخفاف عن سبب مجيئه إليه، «وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» الأعراف/١٠٤) وكان وقْع هذه الجملة كالصاعقة على فرعون، أيّ ربٌّ هذا الذي يقول عنه موسى أنه رسوله؟! ولأول مرة يشعر بالحرج والخوف. لقد جاءه من يكذبه ويفضحه أمام الناس. وبحركة لا إرادية يلتفت إلى من حوله. «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» (القصص/ ٣٨) وهنا يثور أنصار فرعون من المتملقين والمستفيدين من سلطتهم المستمدة من ولائهم وخضوعهم لفرعون، فقد رأوا في موسى خطراً يهدد مصالحهم ويقوض بنيانهم، ويأتي لهم بربٍّ بدلاً من الرب فرعون الذي يدرّ عليهم الخير والمنفعة «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ »(يونس/ ٧٨). ولكن موسى لا يسكت ويرفع صوته متصدياً لفرعون «وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»(القصص/ ٣٧). ويشعر فرعون مرة أخرى بالحرج والخوف. لماذا يصرّ موسى على إحراجه هكذا أمام قومه ولا يسكت؟ إن شيئاً ما في داخله يمنعه من التعرض لموسى وأخيه بأي أذى. فما العمل؟ ربما لانه ترعرع هناك.

ويستفيق فرعون من هول الصدمة، ويهدئ من نفسه محاولاً ألّا يظهر أي أثر للخوف والاضطراب لمن حوله، ثم يغير من أسلوبه محاولاً استمالة موسى وإبعاده عن أمر الرب الذي جاء رسولاً من قبله، فيشير إليه معاتباً وكأنه قد عفا عنه وسامحه عما اقترفه سابقاً «قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ»(الشعراء/ ١٨-١٩) ويجيبه موسى بهدوء دون أن ينكر ذلك « قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (الشعراء/٢٠-٢١). وهنا يتريث فرعون قليلاً ثم يسأله فجأة بخبث ومكر «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» (الشعراء/ ٢٣) ويجيبه موسى بنفس الثقة والقوة «قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ»(الشعراء ٢٤) ويضيف في موقع آخر «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»(طه/ ٥٠) ويسأل فرعون مستخفاً بما يقوله موسى:

«قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» (طه/٥١) ويجيبه موسى بنفس القوة والثقة، ولكنه يوجه الكلام لكل من في البلاط « قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » (طه/٥٢) ثم يعدد له بعض نعم الله سبحانه وتعالى على الناس وقدراته في السموات والأرض، وهي كلها ما يفتقر إليها فرعون ولا يملكها رغم ادِّعائه الألوهية، ويلتفت فرعون إلى وزرائه وقادة جيشه وكهنته وأنصاره ليرى تأثير كلمات موسى عليهم. لقد خشي أن يتأثروا بكلمات موسى وشخصيته، لذلك نظر إليهم بحدة ليُظهر لهم أنه غير مهتم بما يقول موسى، وفي نفس الوقت يحذرهم بشكل غير مباشر من الاستماع لموسى والتأثر به، كما

يذكّرهم بواجب الولاء له « قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ » (الشعراء/ ٢٥). و لكن موسى لا يترك له فرصة ليسمع إجاباتهم بل يستمر في الكلام مستغلاً استماع القوم له واهتمامهم بما يقول، وهو كلام جديد وغريب ومقنع لم يسمعوا بمثله من قبل « قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ » (الشعراء/ ٢٦) ويصيح فرعون بعصبية عندما يرى اهتمام الناس من حوله بما يقول موسى « قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » (الشعراء/٢٧) ويتابع موسى بقوة أكثر « قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » (الشعراء/ ٢٨).

وهنا تثور ثائرة فرعون، ويفقد أعصابه، ويعود إلى كبريائه، ويصرخ مهدداً موسى « قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » (الشعراء/٢٩). ولحكمة ربانية لم يجرؤ فرعون، رغم قوته وسلطته وادّعائه الألوهية، أن يأمر بقتل موسى فوراً، وإنما قال له « لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » كما لم يأمر جنوده بأخذه إلى السجن فوراً، أو بطرده من البلاط. فقد عرف بشكل ما أن هناك قوة خفية تحمي موسى، وأن الخطر يتربص به إن هو أوقع الأذى بموسى، ولكن كيف يتخلص من موسى؟ الذي سيظهر للناس زيف ألوهيته، وسيهدد سلطته وسيصبح مصدر تهديد دائم له بهذا الدين الجديد، فقد أخذ الناس يتأثرون بموسى وبدعوته الجديدة ويعجبون بكلامه المقنع وبشخصيته القوية وثقته القوية بنفسه، وبشجاعته الفائقة أمام فرعون، بل وبدأ الإيمان برسالته يغزو قلوب بعضهم. حتى فرعون نفسه، كان يعرف في أعماق ذاته، أن موسى على حق، ولكن أخذته العزة بالإثم، فشهوة الملك، وإغراء السلطة، والتمتع بالغنى والتلذذ بإخضاع الناس وإذلالهم، كل ذلك أخذ بمجامع قلبه، وسدّ عليه عقله، وأغلق عينيه، وكما نعلم عن نهاية فرعون فلم يبق في أعماقه إلا بصيص إيمان ضئيل، وهو الذي جعله يفيق، بعد فوات الأوان، وعندما أحسّ بالموت، جعله يفيق من ضلاله وغيّه، ويرى حقيقة الإيمان بالله تعالى «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (يونس /٩٠).

ولما أحس موسى أن فرعون قد فقد سيطرته على نفسه، خشي أن يأمر بقتله وأخيه، أو أن ينفذ تهديده، على الأقل ويسجنهما، فوجد أن الفرصة قد حانت لإظهار ما يملك من حجج دامغة تؤيد كلامه « قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ » (الشعراء/ ٣٠). ولم يقل موسى هذا إلا عندما وجد أن الأمور قد سُدّت أمامه، وأنه لا فائدة من إقناع فرعون إلا بحجة دامغة لا يمكن دحضها أبداً. وهذا يدلنا على أن نأتي بالبراهين والأدلة والحقائق الثابتة في وقتها المناسب أثناء الحوار، حتى تكون أبلغ وأعمق في إقناع الطرف الآخر. وهذا يذكرنا بقصة النبي إبراهيم مع النمرود في حواره الشهير عندما قال له في النهاية، مقنعاً إياه بالحجة الدامغة« قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (البقرة/ ٢٥٨). وموسى؛ ما قال عن إتيان الحجة الدامغة إلا ليمتص ثورة فرعون وغضبه ويعيده إلى الهدوء وجوّ المحاورة، بل ولكي يري جميع الحاضرين البراهين والحجج التي سيقدمها لعلهم يقتنعون بها ويهتدون.

وفعلاً هدأ فرعون وانتابه الفضول ليعرف ما هو هذا (الشيء المبين) وأشار إلى موسى « قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (الشعراء/ ٣١). كان فرعون يعتقد أن موسى سيفشل في الإتيان بالبراهين الدامغة، وأنه بذلك سيهزمه ويحقق عليه انتصاراً ساحقاً.

وكانت المفاجأة المذهلة، التي لا تخطر على بال أحد من الموجودين، ولم يكن يتوقعها حتى الذين آمنوا برسالة موسى، ووقف موسى أمام مرأى الجميع « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ » (الشعراء/ ٣٢-٣٣)

ولما أفاق فرعون من هول هذين البرهانين، عرف أن الأمر قد أفلت من بين يديه، وأنه قد انكشف أمام الجميع، وأن موسى قد انتصر عليه، وأن دينه سيعم وينتشر بين الناس، لذلك أخذ يفكر بطريقة يبعد بها موسى عن طريقه، وأخيراً التفت إلى من حوله فجأة « قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » الشعراء/٣٤-٣٥). وطبعاً كان الملأ من حوله أغلبهم من الخائفين من بطش فرعون وظلمه، فلم ينطقوا بكلمة، وظلوا سكوتاً، بينما كان الآخرون من أنصار فرعون ومريديه، وممن يستفيدون من ولائهم له ويستغلون وظائفهم لمصالحهم ومنفعتهم فهؤلاء أجابوا فرعون « قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ »(الشعراء/٣٦-٣٧. وأعجب هذا الرأي فرعون فقال لموسى: « فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ »(طه/٥٨).

إن العقلاء دائما عندما تتضح لهم الحجج ويظهر لهم البرهان ويرون الدليل الساطع على صحة المسألة يقتنعون بذلك ويعترفون بالحق، اما السفهاء فإنهم يصرون علي باطلهم وينكرون الحق لسوء نواياهم وضعف عقولهم، وهذا مايحكيه لنا القرآن الكريم في الحوار الذي دار بين موسي وسحرة فرعون، فقد قبلوا التحدي من موسي أول الأمر« يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى٥٦)) قال بل القوا فإذا حبالهم وعصيهم يُخيّل إليه من سحرهم أنها تسعي (٦٦) فأوجس في نفسه خيفة موسي(٦٧) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (٦٨) وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يُفلح الساحر حيث أتي (٦٩) والقى موسي عصاه فابتلعت سحرهم وأيقن السحرة أن ما فعله موسي إنما هو معجزة وليس سحراً وانه رسول من رب العالمين وان حجته هي الأعلى، فما كان منهم بعد أن اقتنعوا بالحق إلا أن قالوا بكل شجاعة وإخلاص (آمنّا برب هارون وموسي) وردوا علي فرعون الذي هدّدهم بان يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف(إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى(٧٣)

وهكذا ضرب سحرة فرعون أروع الأمثلة في الإخلاص والشجاعة والخضوع للحق بعد قيام الأدلة والحجج على أن موسي علي الحق.

فلا بد من الإعتماد على الأدلة البرهانية التي تقوم على الحقائق التي تدركها العقول السليمة وتذعن لها القلوب التي لم تطمس بصيرتها الأهواء ونوازع الجحود والإنكار.إن إظهار الحق وايصاله للآخرين واقناعهم به يحتاج إلى معرفة طبيعة النفس البشرية وما يصلح لها وما يسوؤها.

وطبعاً جميعنا يعرف ماذا حدث بعد ذلك، وما هو الحوار الذي دار بين السحرة، ثم الحوار الذي دار بين السحرة وموسى. ولكن الذي يهمنا أن القرآن الكريم بيّن آداب الحوار البنّاء والإيجابي. ولكن بعد ان انتهينا من عرض قصة موسى بحسب ذكرها في القرآن الكريم يجدر بنا ان نشير إلى ما يلي:

- ملاحظة ميزات وخصائص المراحل العامة التي مر بها موسى في حياته.
- ملاحظة الحوارات من خلال الموضوعات التي تحدثت عنها القصة بشكل عام.
- عند ملاحظة الظواهر العامة يبرز لنا موسى في شخصيته ذلك الانسان القائد الذي يريد اللّه سبحانه ان يهيأه لاعباء مهمة هدايته بين اسرائيل لوحدانية اللّه سبحانه وكان.يتصف بالاخلاق والقوة البدنية والشجاعة التي كان يتمتع بها موسى ويكشف لنا عن ذلك موقفه من الفرعوني وقضاؤه عليه بوكزة واحدة.

وهذه الميزات تحقق شروطاً ضرورية لحمل اعباء الرسالة التي اراد اللّه سبحانه لنبيه موسى القيام بها من هداية قوم فرعون الى وحدانية اللّه والايمان بربوبيته. وتخليص بني اسرائيل من الاضطهاد والظلم الذي كانوا يعانونه في مصر. وقد توسل موسى من اجل تحقيق هذين الهدفين البارزين في حياة دعوته بأساليب مختلفة ومتعددة كانت تبتدئ بالمناقشة الهادئة والكلام اللين وتنتهي بالعذاب والرجس الذي انزله اللّه سبحانه وتعالى عليهم في آيات عديدة.

النتائج

يعطينا القرآن الكريم صوراً والواناً من المواجهة التي تحصل بين النبي وجماعته من جانب والكافرين بدعوته من جانب آخر وتتخذ هذه المواجهة صوراً والواناً مختلفة متفاوتة على اختلاف مدى نجاح النبي في الدعوة وسعة اهدافه ومقدار معارضته للمفاهيم الاجتماعية السائدة. وتكاد ان تكون هذه المواجهة شيئاً طبيعياً نتيجة الصراع الذي يدور بين الفكرة الجديدة وانصارها والفكرة السائدة في المجتمع وحماتها. كما انه يهدف ايضاً الى ان الرسول حين يدعو الناس الى اللّه لا يكتفي بطرح الفكرة فحسب ويطلب منهم الايمان المقلد نتيجة لوجود المعجزة وانما يحاول ان يصل اليهم ويتوسل الى ايمانهم عن طريق الحوار المبني على الدليل والبرهان العقلي والمخاطبة الوجدانية.

والقرآن الكريم حين يعرض هذا الموضوع في قصة موسى ويكررها يريد ان يؤكد هذا المفهوم الاجتماعي عن الصراع وان هذه المعارضة التي حصلت للنبي محمد (ص) ليست بدعا في التأريخ وانما هي النتيجة الطبيعية للصراع الفكري والسياسي. كما اننا نجد في هذا العرض للموضوع في القصة ايضاحاً للاعباء التي يتحملها النبي في سبيل الدعوة وانها ليست اعباء عادية يتمكن كل واحد من الناس ان يتحملها.

وحين يشير القرآن الى الوان المواجهة والحوار الدائر في المواجهة في هذه القصة نجد انفسنا امام الواقع الاجتماعي الذي

كان يواجه به النبي (ص) في دعوته وامام الاساليب والالوان نفسها.

- فالحوار نوع من الحديث بين طرفين أو أكثر يتم فيه تداول الكلام بطريقة لا يستأثر به احدهما دون الآخر ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والحوار أوسع مدلولا من الجدل لأنه يعني الصراع.
- أهداف الحوار متعددة فهو يستهدف الحقائق والبراهين الدالة على الايمان، والحوار في القرآن يشمل أفضل المناهج.
- إن الواجب على المحاور الناجح أن يكون على بيّنة من الموضوع الذي يحاور فيه حتى لا يكون بعيدا عن قواعد الحوار وضوابطه وعليه ان يتزود أمام خصومه.
- إن الحوار الذي يدعو إليه الإسلام لا يعني إلغاء الطرف الآخر بل الهدف هو تمهيد التعاون بين البشروهذا ما يثبت أن المسلمين دعاة حوار وتفاهم، ويثبت أن الدين الإسلامي دين الحرية فهو يدعو إلى إعطاء الفرصة لإبداء الرأي حتي للمخالفين ومعاملتهم بالرفق دون العصبية.

ونستطيع أن نبرز من الأمثلة القرآنية للمواجهة والمخاطبة مع الأخر في قصة النبي موسي(ع) المشهد الذي أمره الله بالذهاب إلى فرعون لأنه طغى هو وأخيه هارون، كان جواب المولى عز وجل على خوفه بقوله تعالى: «لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى، كان سيدنا موسى قوياً شجاعاً ولكنها لا تعني عدم الخوف، فخوفه كان ناتجا عن قتله للفرعوني، فقد قتل إنساناً لشجاعته ووقوفه مع الحق أمام الباطل، وكانت قصته مع فرعون تمثل أرفع مثال للتفرقة بين الحق والضلال ففرعون وموسى على طرفى نقيض، علم موسى أن الشجاعة والقوة لا تعتمد على ساحات الحرب فقط وعدم الذعر وإبداء الرأى والمجاهرة بالحق والاعتراف بالخطأ ولكنها فى ذروتها تصل إلى الحد الأقصى لضبط النفس ومراعاة مقتضى الحال المنطقي في الحوارللتفكير، كما نجده في مخاطباته يتبع الاساليب المختلفة التي كان يطغى عليها اللين والرفق تنفيذاً لامر ربه فكان يتوسل الى فرعون أحياناً ويذكره بآيات الله أحياناً أخرى كما قد يشير الى عذاب الآخرة، كل ذلك من أجل أن يحقق النبي غايته التي يرمي اليها وهي هداية الناس الى الله سبحانه،ووصف القصة رائع فى القرآن الكريم ويبين كيف كان اليهود يتشددون فى السؤال والاستفسار فى لجاجة وغشامة.. فكان موسى يتشدد معهم أيضاً – كما يأمره ربه – فى الجواب..وحوارهم فى التوراة يقتصر على تعبير «ربك يا موسى» كناية عن تجاوزهم فى الحوار مع موسى والرب.

إن الرسالات السماوية لم يكن تكليف الرسل بها إلا بعد إعدادهم إعدادا كاملا.. فها هو موسى عليه السلام حين قال له المولى سبحانه: اذهب إلى فرعون إنه طغى توجه إلى مولاه بقوله رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى، واجعل لى وزيراً من أهلى، هارون أخى فهو بهذا يطلب من ربه أن يلهمه الاستعداد لدوره بعد فهمه له، وأن يجعله قادرا على تحمل هذا الدور الذى يحتاج إلى تخطيط حتى يتمكن من إبلاغ الرسالة وهو منبسط النفس مستسهل تنفيذ الأمر.

وهكذا كان إعداد موسى عليه السلام، وإعداد محمد صلى الله عليه وسلم، وإعداد كل المرسلين وتعليمهم وتدريبهم على طريقة التبليغ وأسلوب العمل.

ونوصي بإقامة الندوات والمؤتمرات لنشر الوعي الإسلامي حول أدب الحوار وضوابطه لبث روح الأخوة والمودة والعمل على التعاون على القواسم المشتركة، ولابد أن نستفيد من القرآن والسنة في تطوير مهارات الحوار حيث اتّخذ القرآن الكريم أسلوبا بعيدا عن التسلط، والعنف، أو التكفير في الحوار. ونحن نحتاج أن نعود إلى القرآن الكريم؛ لنتعلم منه كيف يكون الحوار وذلك بتدبر الحوارات القرآنية و تحليلها و دراستها و تدارسها.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- آمدي، عبدالواحد بن محمد، غرر الحكم درر الكلم٠ لا تا)

– ابن حميد، صالح بن عبد الله، معالم في منهج الدعوة، (١٩٩٩م)، دار الأندلس الخضراء، جدّة.

– ابن منظور، لسان العرب (١٩٩٨م)، مؤسسة الرسالة - بيروت.

- ابراهيم انيس وآخرون، المعجم الوسيط(١٩٧٢)، دار إحياء التراث، بيروت.

– الأصفهاني، أبو القاسم الحسن بن محمد، المفردات في غريب القرآن (١٩٩٧م)، مكتبة نزار مصطفى الباز.

- الحاشدي، ابو عبدالله فيصل بن عبده، فن الحوار أصوله آدابه صفات المحاور(بدون تاريخ)، دار الإيمان، الإسكندرية.

حر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة(١٤٠٩)، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث،قم.

- ديماس، محمد راشد، فنون الحوار والإقناع، (١٩٩٩م)، دار ابن حزم، الرياض.

- ريچاردسون، جرى، معجزه ارتباط، ترجمه مهدى قراچه داغى(١٣٨١) نشر پيكان، تهران.

- القرطبي، ابو عبداله محمد بن احمد الانصاري، الجامع لأحكام القرآن(لا تا).

- كابور، دون، مهارت هاي كفتكو، ترجمة قراچه داغى(١٣٨١)، پيك بهار، تهران.

- نراقي، محمد،جامع السعادات، تصحيح محمد كلانتر(لا تا)،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت

– وود، جولياني، ارتباطات ميان فردي وروان شناسي تعامل اجتماعي، ترجمة مهرداد فيروزبخت(١٣٧٩)، مهتاب، تهران.